قدسيات تائيات

يوسف حبيش

١٩٦٨

حضرة صاحب الغبطة البابا المعظم الانبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

هذه قصص منوعة لخاطئات صرن قديسات، تركن حياتهن الأولى وسلكن طريق القداسة والسهر والصوم والصلاة والانسحاق والدموع، فقبلهن المتحنن على جنس البشر كعظيم رحمته - انه لا يرفض قط تائباً رجع إليه وألبسهن الحلة الأولى وذبح لهن العجل المسمن.

تتحول أحزان السماء إلى أفراح وتهليل حسبما هو مكتوب «يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة»، وتبتهج صفوف القديسين والملائكة برجوع الخطاة الذين أهلوا لرحمة يسوع الغير المحدودة ولا تزال مائدة الفرح والابتهاج مهيأة والعجل المسمن مذبوحاً ولأجل ذلك يقول الكتاب: «ينبغى لنا أن نأكل ونفرح»،

هذا الفرح الذى لما رام أشعياء النبى وصفه لم يجد شيئاً يشبهه به أفضل من قوله: «لأنه كما يتزوج الشاب عذراء... وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك» أش ٦٢: ٥، وصف النبى فى نبوته آلام السيد المسيح بقوله، أما الرب

فسر بأن يسحقه بالحزن ، وقوله « مسحوق لأجل آثامنا ومجروح لأجل معاصينا » ، ومثل خروف سيق إلى الذبح وكشاة صامتة أمام جازيها . . . فإذا تبنا إليه كيف لا يهبنا كل شيء ؟ ! !

ما أعظم الفرح والسرور الذى يكون فى السماء برجوعنا وما أجزل الكرامة التى تنالها بعودتنا لأبينا .

وما أبهظ الأجر الذى يتقاضاه ابليس منا إذا استمرينا فى الخطية وبعدنا عن أبينا .

أتحتقر ذلك المجد الذى وصفه الكتاب المقدس ؟ « . . . مالم تره عين وما لم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب بشر . . . » .

ان عدو الخير يروم أن يعدمنا ميراث ملكوت السموات إذ ننفصل عن الآب وعن الأحضان الابراهيمية المقدسة ونلقى فى العذاب الأبدى المعد لإبليس وجنوده .

انه يروم ان يفترس خراف المسيح ويبددها ويحاول أن يسقطنا فى الخطية كل يوم ويفصلنا عن الكرمة الحقيقية فنجف ونسقط ونكون أشقى جميع الناس وتدهمنا المصائب .

فإلى متى نستمع لمشورته ونؤجل توبتنا ! !

حزن وخزى وعار لمن ينفصل عن الله

لما أخطأ آدم ابتعد عن الله فاختبأ وامتلأ خزياً وستر خزيه بأوراق التين وصار يندب ذاته منتحباً ، ولما أخطأ شمشون فارقته قوته للحال وأصبح أعمى مكبلاً بالقيود وطفق يدير حجر الرحى مثل حيوان ، واخطأ داود النبى ليلة فبكى كل ليلة ، تحولت حياته إلى أحزان ، امتزج خبزه بالدموع ، وبدموعه كان يبل فراشه .

ويضع التاريخ أمام أعيننا أمثلة ظاهرة عن قديسين وقديسات تركوا خطاياهم مثل مريم المصرية ، مريم التائبة ، الشهيدة أفدوكيا . . . ، يعقوب المجاهد ، موسى الأسود . . . هؤلاء وغيرهم عرفوا خطاياهم وندبوها ، أما نحن فلا نحس للآن بثقل خطايانا ولا نتوب عنها .

ان حالة الخاطىء تستوجب النوح والبكاء ذلك انه ينفصل عن الله تعالى مصدر الخير والبركات ومعطى الحياة ، فيصير عدواً لله مبغضاً منه بدلاً من أن يكون صديقاً وحبيباً بل ابناً كما انه يكون عدواً للناس .

لما اخطأ الإنسان أصبح له جملة أعداء من البشر ومن الوحوش الضارية والبهائم والدابات ، وحوله حشرات عديدة سامة تريد الفتك به .

يقول فى ذلك القديس باسيليوس الكبير : « انه قبل المخالفة فى الفـــردوس لم يكن فى الورد شوك ولا فى الحيات سم » . ويهمل الملائكة الخاطىء ويتركونه لأنه كما يقول الكتاب «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم ... » ، فمن يكون مع الخاطىء إذن ليخلصه من الأخطار الوقتية الحاضرة والأهوال والشدائد الأبدية الآتية ؟

يقول القديس باسيليوس الكبير أيضاً، ان من أسخط ملاكه الحارس له وطرده مبعداً إياه بخطاياه ، يكون الخطر المعرض له أشبه بالخطر الذى يتعرض له مركب خلا من ربان يقوده وهو فى وسط الأمواج المتلاطمة والرياح الشديدة والزوابع المخيفة والعواصف العنيفة ، مثل خروف فى أرض كلها ضخور وليس هناك راعى يرشده أو كطفل أدركه الظلام ولا معين يأخذ بيده...

ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم: « ان داود النبى يستدعى فى مزاميره كل البرايا معاً إلى تسبيح الله تعالى وتمجيده ، حتى المخلوقات المخيفة لأنه يستدعى الحيات والتنانين وأما الخطاة فإنه لم يحصهم فإنه يقول : «سبحى الرب من الأرض يا أيتها التنانين» مز ١٤٨ : ٧ ، ولا يقول سبحوا الرب أيها الخطاة لأن الخاطىء وحده يطرح ويطرد من صفوف المسيحيين والممجدين لله الخالق.

وليس ذلك فقط بل ان صدقات الخاطىء وأعياده غير مقبولة لأن الكتاب يقول : « لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. وبخور شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى » أش ١ : ١٣ - ١٤ .

الخطية تعمل فى النفس عمل الصاعقة ، انها تهدم حياة الخطاة. أفسدت الخطية قلب داود كما يشهد هو عن نفسه « وأنا بليد ولا أعرف صرت كبهيم عندك » مز ٧٣ : ٢٢ ، ابقت له قضيب الملك فى يده والتاج الثمين على رأسه والارجوان الفاخر على منكبيه ولم تعدمه شيئاً من ذلك لكنه كان فى الداخل مرذولاً ومهاناً ، وهذا الامر بعينه يعرض للخاطىء . . . له مركزه المرموق المحترم بين الناس، له مكانته فى كل الاوساط لكن نفسه أفسدتها الخطية وفى الداخل هو ملوء عظام أموات وكل نتن ونجاسة.

لماذا نرفض محبة الله الأبوية سنين عديدة . . . ؟

ان زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا ارادة الامم سالكين فى الدعارة والشهوات ... ١ بط ٤ : ٣.

يكفينا تعبنا وتغربنا هذه السنين الطويلة عن الآب الحنون والصديق المحب. أين نختبىء من أمام الرب إلهنا الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها . . . أفى البساتين والحقول التى زينها بالزهور الجميلة وجملها بالاثمار المختلفة لغذائنا ؟ أفى البحر

الذى أجله من أجلنا وبسطه لاجل معيشتنا وتجارتنا ؟ أفى الجبال والاودية تجرى فيها المياه تروى الظمأ ؟

ان السيد المسيح لا يزال ينادى ، ارفعوا الحجر عن قلوبكم أيها الخطاة ، ارفعوا الحجر لتنظروا عظم نتانة ما بداخلكم ، ارفعوا حجر الحقد والضغينة ، ارفعوا حجر الشهوة الرديئة الكريهة من قلوبكم المنبعثة نتانتها التى لا تطاق .

لما أعاد السيد المسيح الحياة للبيت اختفت رائحة النتن . صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً ، خرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات فقال حلوه ودعوه يمضى .

هكذا يقيمنا الرب - ولو كنا أمواتاً بالخطايا ومربوطين بالشهوات والادناس - بقوته المقدسة ويحلنا من خطايانا ويدعنا نسلك فى طريق البر والقداسة .

القصص التى نعرضها فى هذا الكتاب هى قصص متنوعة عن عذارى ومتزوجة ، سقطن ثم تبن التوبة الصادقة وأصبحن قديسات ويذكرهن تاريخ الكنيسة ، انها قصص تتعلم منها ضرورة الاحتراس واليقظة والسهر . إن كنا سقطنا نقوم للحال ونتوب ، نهرب من الشرور كما نهرب من الحيات ونصغ إلى قول الكتاب المقدس .

† « اهرب لحياتك » تك ١٩ : ١٧ .

† « احفظ نفسك طاهراً » ١ تى ٥ : ٢٢ .

† « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها » ٢ تى ٢ : ٢٢ .

† « أيأخذ إنسان ناراً فى حضنه ولا تحترق ثيابه ، أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه » أم ٦ : ٢٧،٢٨ .

فى القصة الأولى نرى شابة متزوجة تسقط وباقى القصص عن عذارى بالحقيقة ان لم نسلك بتدقيق وحذر وانسحاق قلب وطلب المعونة من الله فإن أمر السقوط سهل بالنسبة للجميع ، ان من يتضع أمام الله ويطلب المعونة منه تسنده النعمة ، يقاوم الله المستكبرين أما المتواضعين يعطيهم نعمة ، ومن يهمل وسائط النعمة يعرض نفسه للسقوط .

فى قصتى بائيسة وتاييس نرى درساً عملياً باهتمام الرهبان الكبار لانتشال النفوس الغارقة فى الخطية ونرى حكمة شيوخ البرية فى اختيار الآباء الكبار فى المعرفة والإفراز (التمييز الروحى) لهذا الغرض [1] .

(١) كثيراً ما يعرض العدو على الشبان والمبتدئين أن يقوموا باسداء النصح لمن يقاربونهم فى السن من الجنس الآخر وهم بذلك يتعرضون لما قد يفسد حياتهم ، ونرى فى هذه القصص انه كان يقوم بمثل هذه الأعمال المتقدمون فى النعمة .

وفى قصة بائيسة نرى رحمة الله تتجلى معها نظير ما فعلته من أعمال الرحمة قبل سقوطها وكيف دبرت العناية الإلهية طريقة لخلاصها ... وتوضح قصة تايس خطر استهتار الأمهات وكيف يحدرن بناتهن إلى الهاوية بسوء سلوكهن وعدم ظهورهن بالمظهر اللائق.

فى قصة القديسة مرثا نرى كيف أن مجرد ذكر الخطية يشع جداً فلم تحتمل مرثا المصرية صدمة كشف خطيئتها ومنعها من دخول الكنيسة ليلة عيد الميلاد، وأثر ذلك على نفسها فعزمت على التوبة للحال لما طردها ابيوذيا كن الكنيسة باعتبارها إمرأة معروفة بسيرتها الرديئة ... وأيضاً نرى أن حياة التنعم والبذخ واهمال وسائط النعمة ومحبة الاسترخاء والكسل قد تؤدى إلى الاستهتار والسقوط.

فى كل هذه القصص المتنوعة وغيرها من القصص الكثيرة تظهر رحمة الله لكل الناس الخطاة التائبين ومغفرة خطاياهم الكثيرة، وهذا ما يشجعنا نحن الخطاة على الاقتراب من السيد المسيح على الفور لأنه رحوم ومحب البشر ويجزل الغفران وهو الذى قال من يقبل إلىّ لا أخرجه خارجاً، وتعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم.

نظراً لنفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب رأينا إعادة طبعه سنة ١٩٦٨

نونس جبرائيل

مصادر السير الواردة بهذا الكتاب

1) Stories of the Holy Fathers, E. A. Wallis Budge.

2) The Paradise of the Holy Fathers.

3) The Book of Paradise.

4) Les Saints d'Egypte, Cheneau.

5) The Saints of Egypt, O. Leary.

6) Synaxaire Arabe, René Bassé.

(٧) السنكسار.

(٨) بستان الرهبان المطبوع.

(٩) المخطوطة ١٧٥ / ٢٩٦ طقس بالمتحف القبطى.

(١٠) تاريخ الكنيسة للمتنيح القس منسى يوحنا.

(١١) البوق الإنجيلى.

لكن بالنسبة للسيرة الأولى المتضمنة قصة القديسة ثيؤدورة الشابة المتزوجة بالاسكندرية فلم نجد لها مرجعاً إلا ما ذكره « شينو » فى كتابه « Les Saints d'Egypte » الجزء الثانى من ٣٢٤ - ٣٢٩.

انها عاشت فى القرن الخامس وأوائل السادس أى بعد مجمع خلقيدونية ، ولم يشر إليها فى سنكسار الكنيسة القبطية أو بين القديسات التائبات اللواتى أشار اليهن « بلاديوس » فى كتابه

« Paradise of the Holy Fathers »

لكن كما هو معروف ان السنكسار لا يمكن أن يتضمن جميع القديسات والقديسين .

ان الكنيسة الكاثوليكية تعترف بها كإحدى القديسات التائبات وتعيّد لها فى يوم ١١ سبتمبر من كل عام ، وقد ذكر « شينو » سيرتها تحت هذا اليوم وأثبت مراجع السيرة كالآتى :

1) Synax. de Constantinople II Sept.

2) Ménologe Copte 8 Sept.

لكن يبدو أيضاً انها كانت ارثوذكسية العقيدة فإنها لما تابت انطلقت من الاسكندرية إلى دير الزجاج متخفية فى زى الرجال ، وكان هذا الدير يعرف بدير التسعة أميال إذ يذكر « شينو » ص ٣٢٧ :

انها دخلت دير « None »

« Ainsi nommé paree qu il était au neuvitéme mille d 'Alexandrie . . . .

« يسمى هكذا لأنه كان فى الميل التاسع للاسكندرية » .

وهذا الدير كان من أكبر وأشهر الأديرة غرب الاسكندرية على بعد تسعة أميال وموقعه بلدة الدخيلة الآن ، وقد تخرج فى هذا الدير عدد من البطاركة الأنبا بطرس الرابع ، الأنبا دميانوس ، الأنبا سيمون الأول ، والأنبا الكسندروس فى القرنين السادس والسابع .

كما دفن فيه عدد من البطاركة من بينهم القديس أنبا ساويرس بطريرك انطاكية وكان ديره المفضل فى حياته ، وهذا القديس معروف عنه انه كان من أكبر مقاومى مجمع خلقيدونية .

أيضاً كان هذا الدير معروفاً للقديس الأنبا دانيال القمص (لا تعترف به الكنيسة الكاثوليكية) بدليل ما ورد فى قصته انه لما ذهب لافتقاد القديس مرقس بالاسكندرية وجده قد تنيح فارسل واستدعى رهبان دير الاناطون (التسعة أميال) بسرعة حيث حملوا جسد القديس بين البكاء والنحيب (كتابنا الأنبا دانيال القمص ص ٦٠) .

أيضاً نرى من قصة القديسة ثيؤدورة انهم كانوا يرسلونه (ثيؤدور) إلى كنيسة القديس الأنبا بطرس خادم الشهداء ،

وتحتفل الكنيسة القبطية فى ٢ أمشير بتذكار بناء هذه البيعة وهى أول بيعة بنيت بالاسكندرية فى عهد قسطنطين الكبير وخربت بعد الفتح العربى بقليل ... (ص ٣٣١ السنكسار الجزء الأول طبعة ٩١٢) .

ولايحتمل أن تكون هذه القديسة من اتباع المجمع الخلقيدونى لان الآب دانيال القمص والأنبا ساويرس بطريرك انطاكية كانا يترددان على رهبان هذا الدير بالذات وكان له شأن كبير فى الوقت الذى ترهبت فيه القديسة ، ومن رؤسائه القمص ليخيتوس والقمص بقطر ....

† † †

القديسة ثيؤدورة

التائبة بالاسكندرية

القديسة ثيؤدوره

التائبة بالاسكندرية (١)

ميلادها ونشأتها

ولدت بالاسكندرية فى القرن الخامس الميلادى من أبوين شريفين منحهما الرب غنى وخيرات زمنية كثيرة، وكانت الفتاة بارعة الجمال عاشت فى بدء حياتها عيشة طاهرة تتمتع بكل بركات الغنى التى أفاضها الرب على هذه العائلة التى كانت تخاف الله، تنعم بالهدوء والحياة المباركة المحفوفة برفرف عليها ملائكة السلام، يظلل عليها الرب ويبسط رضاه عليها.

بلغت الفتاة سن الزواج وكان والداها يخافان عليها من تيارات الشر الجارفة ففكرا فى تزويجها حفظاً لها وكانت تحوطها مظاهر الثراء والغنى. زوجاها من شاب غنى من عائلة مباركة

(١) ترجمناها بتصرف كثير من «شهنوه الجزء الثانى «قديسو مصر» ويجب التفرقة بين هذه السيرة وسيرة تيؤدوره الشهيدة بالاسكندرية التى استشهدت سنة ٤٣٠م ومعها القديس ديديموس الشهيد ـ معناها موهبة الله (كلمة يونانية).

حسنة السمعة وكان تقياً جداً، قبلته الفتاة زوجاً عن رضى وارتياح كبير وكان الزوج سعيداً لتوفيقه إلى زوجة صالحة يترنم بقول سليمان الحكيم «من يجد زوجة يجد خيراً وينال رضى من الرب» أم ١٨ : ٢٢.

أمضى الزوجان الشابان أياماً سعيدة كأنها نسيج من الذهب والحرير يتمتعان بالمسرات الطاهرة والاتحاد المقدس وسط كل مظاهر الغنى مع خوف الله واكرام الجميع. استمرا على ذلك زماناً لكن العدو كان يسهر حاسداً ويدبر لهما المكائد لإفساد حياتهما مثله مثل الحشرة الدنيئة التى تهاجم خفية جذور الورود الجميلة فتفسد رونقها وتذلها.

كثرة الأصحاب تخرب النفس أم ١٨ : ٢٢.

فى وسط مظاهر الغنى وفى وسط الحفلات والاجتماعات والأسمار الترفيهية تكاثرت الزيارات والاهتمامات العالمية، الأمر الذى يحدث كثيراً فى حالة الثراء والغنى على رأى سليمان الحكيم: «الغنى يكثر الأصحاب والفقير ينفصل من قريبه» أم ١٩ : ٤.

تمكن شاب غنى جداً ومن عائلة كبيرة من التعرف بها وزيارتها

ضمن الزواجين ورويداً رويداً بدأت العلاقة الطاهرة تنمو بينهما بحكم ظروف الحياة المتشابهة التى كانوا يعيشون فيها ولم يكن يدر بخلد الزوجة ثيؤدوره أو زوجها الطيب القلب أن هذا التعارف ينقلب وينتهى بمأساة وكارثة خلقية .

بدأ الشاب ينظر إلى ثيؤدوره نظرة احترام وتكريم لزوجة شريفة كما يفعل الكثيرون، وكان يبادل زوجها عبارات الاخلاص والوفاء والمودة الاخوية ... فى لباقة ونباهة ، وكانوا يلسون فى حديثه ذكاء وفطنة وفى ابتسامته الخفيفة ونكاته الفريدة أدباً وحياء ... لكن فى وسط كل هذا كانت هناك ثغرة خطيرة هى أن هذه القسلية وهذه الموائد كان ينقصها ذكر اسم السيد المسيح وحضوره فى الوسط فتهرب الذئاب من وسط الخلان ، ينقصها أن تكون كما قال عنها القديس بولس الرسول : « أن **كانت تسلية ما للهجة** ، ان كانت شركة ما فى الروح ، ان كانت احشاء ورأفة فتمموا فرحى حتى تفتكروا فكراً واحداً ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً . . . **فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضا** فيلبى ٢ : ٢ ـ ٥ .

دب الفتور والاسترخاء فى النفوس وانغمست فى كثرة الاهتمامات بأمور غير صالحة للبنيان وفاتها تحذير بولس الرسول « انظروا كيف تسلكوا بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لأن الايام شريرة من أجل ذلك لا تكونوا أغبياء بل فاهمين ما هى مشيئة الرب » أفسس ٥ : ١٥ - ١٧ .

تطور علاقة الشاب بالفتاة

تسلل عدو الخير إلى الوسط وأخذ يدبر المكائد ، يزأر مثل أسد مريداً إفساد حياة ثيؤدوره وافتراسها [1] ، ووجد الجو الذى كانت تعيش فيه مهيأ لهذا فأشعل هياماً وحباً طائشاً فى قلب ذلك الشاب وقاتله بقتال الشهوة الرديئة نحو الفتاة ، وبعد أن كان فكره طاهراً خدعه إبليس سريعاً بتصورات شريرة وأفكار فاسدة وكان يستسلم لهذه الافكار يوماً فيوماً فلم يستطع أن يسيطر على التجربة . نسى مركزه ومركز عائلته ، نسى كرامته وسمعته ونسى أنه بالخطية يسىء إلى نفسه وإلى الله كما يسىء إلى عائلته وإلى وطنه وإلى هذه الفتاة وزوجها ويحول حياته إلى

(١) الجوس كثيراً من الأمور التى ترى فى ظاهرها بريئة وفى الآخر تلسع كالحية . الجوس من مهابة الأسد وهو صامت ، والتهرب من لمس الحية لئلا تهلكنا .

جحيم لا يطاق . نسى كل شيء ، لم يفكر فى شيء لأن الشهوة أعمت عينيه ، وتحرك الشاب ذات ليلة وتحدث إلى الزوجة ثيؤدوره حديثاً غير لائق ولم يستح أن يعرض عليها مشورة إبليس النجسة التى استمع إليها فى فرصة رآها سانحة ، لكن ثيؤدوره كانت ضابطة لنفسها وكانت هذه الأقوال المذمومة صدمة لها ، وقعت فى قلبها موقعاً سيئاً فصدته فى كرامة وقوة ووبخته فى عنف وزجرته فى شدة وطردته شر طرد .

لكن ما حدث بالنسبة للشاب الوقح المستهتر لم يكن كافياً لردعه لأن الشهوات كانت قد استولت عليه ، أخذ يتمادى فى التفكير فى الشر ، وكانت اهانته وطرده دافعاً له بالاكثر للتوغل فى الشر بدلاً من النكوص . أخذ بعدئذ يدبر أمراً ليسقط هذه الزوجة ويفسد حياتها ، كان يفكر فى الوصول إلى غرضه الشرير وتفتحت أمامه حيل الشر ـ وهذا ما يحدث بالنسبة لكل سائر فى الطرق المعوجة ـ رأى أن يعيد التودد إليها باستخدام أساليب شيطانية ، أعاد الكرة . . . وأخيراً سقطت السقطة المروعة . تحطمت حياتها الزوجية والروحية وتهدم عش سعادتها . . . وإلى هنا لم يكن زوجها البائس المسكين يعلم شيئاً عن سلوكها وخيانتها الدنيئة .

بعد السقطة المروعة تراكم الحزن والخزى والعار على ثيؤدوره كما هو الحال عقب السقوط ، وبعد ان كانت معروفة بطهارتها ومشهورة بتقاواتها وبرارتها هبطت إلى الدرك الأسفل ، فاحت رائحة الخطية كما تفوح رائحة النتن من الجسد الميت ، وأمست بين ليلة وضحاها مثل الجيف الميتة تنهشها الحيوانات المفترسة .

أفاقت من سقطتها ووجدت نفسها قد تدنست ، تملكها ندم قاتل وتجرعت كؤوس الحزن وصارت تبكى وتمزق قلبها هلعاً وفزعاً وكان لجريمتها مفعول السم يسرى ببطء فى جسمها ويسمم كل حياتها ويسيطر على تفكيرها ليل نهار ، صارت مسرات الحياة ومباهجها مصدر نكد وألم ، كانت تصرخ من أعماق قلبها الممزق فى تأوهات مرة دون أن تستطيع النطق بكلمة واحدة ، كانت تسجد إلى الأرض تلطم وجهها وتندب مصيرها .

« ارحمنى أيها المتحنن كعظيم رحمتك ، يا إله الرحمة والرأفة التجىء إلى مراحمك لأنه لم يبق لى رجاء ولا أمل . نعم انى قد أخطأت وأذنبت لكنى صنعتك وجبلتك فأنت قد رسمت صورتك البهية فى هذه الطبيعة العديمة الشكر وأنا قد سودتها بخطيتى . . . ويحى أنا المسكينة ! ! لقد كنت قبلا فى كرامة وسلام ، كنت أعيش تحت ظلال غروس الفردوس الشهية المباح أكلها والتلذذ

بها والآن أسير لارى الاشواك ... أية تعاسة للجبلة المنفصلة عن جابلها ، انها كالجو الذى خلا من الشمس وأرخى عليه الظلام الحالك ، كالعين التى جفت ونضب ماؤها ، كالجسد الذى فارقته النفس . . . »

ان تذكر سعادتى السابقة يثقل على أحزانى الحاضرة ، وخياتى الكبيرة التى سقطت فيها تجعل مصيبتى ابهظ مما احتمل .

الآن أرى حقيقة نفسى ، أنى موضوعة تحت الموت والاحزان والضيقات والاوجاع ، أنظر إلى السماء حزينة والارض تندب تعاستى ... ويزيدنى ألماً أن أرى باب فردوس النعيم مغلقاً والحربة النارية حارسة له .

صرت الآن بالحقيقة عدوة لك يا رب فكيف أثبت بصرى نحوك .

انطلاقها الى دير الرهبان

أخيراً لم تحتمل البقاء فى العالم وصار كل شىء أمامها مراً وكريهاً . خرجت من منزل الزوجية ساعية نحو خلاص نفسها بعد أن اعترفت بكل شىء وبعد أن أخبرت زوجها بخطيئتها لان حياتها بعد سقوطها أصبحت مريرة وكان المنزل شبه مأتم دائم

لا يسمع فيه سوى الانين والبكاء ... أرادت أن تذهب إلى مكان منعزل لكى تمارس أمور توبتها من الخطية التى خربت حياتها .

وفى إحدى الليالى الحالكة الظلام ، قصت شعرها وتزيت بزى الرجال وخرجت متخفية فى جنح الظلام وقصدت دير « الاناطون » وهو يبعد عن الاسكندرية بتسعة أميال (فى موقع الدخيلة الآن) وترجت الآب رئيس الدير أن يقبلها ، ولكى يختبر الآب مثابرتها تركها طول الليل عند الباب وكانت معرضة للبرد والحشرات المؤذية التى تجوب الصحراء ، أما هى فدموعها كانت تنهمر مدراراً وكانت تجهش بالبكاء كمن يندب أباه وأمه كانت تستغرق فى العويل ولم تكن هذه الدموع لتجد أمامها ما يوقفها أو يمنعها . وما أن أشرقت شمس اليوم التالى حتى كانت عيناها قد تورمت من كثرة البكاء وسمح لها رئيس الدير بالدخول وعرفت باسم ثيؤدوره .

ثيؤدوره فى الدير تمارس قوانين التوبة

وهكذا تجلى غنى مراحم الرب فى هذه المسكينة فقادها إلى ميناء السلامة ، ميناء الخلاص فظلت تحت إرشاد الآب رئيس الدير وظلت تنفذ كل ما يوكل إليها من أعمال فى انسحاق وانكسار .

أما زوجها فكان حزيناً كاسف البال لا يدرى ماذا يكون مصيرها وكان دائم الصلاة والتضرع إلى الله بدموع حارة حتى تستريح نفسه المضطربة ويهدأ قلبه الثائر . . . أخيراً فى غمرة التفكير والحزن رأى حلماً كأن ملاكاً نورانياً يقول له اذهب فى الغد إلى كنيسة القديس بطرس خاتم الشهداء وسوف تجدها على مقربة من بابها ولن تجد غيرها عند وصولك إلى الكنيسة،

فلما أشرق النور انطلق إلى هذه الكنيسة وحدث فى هذا اليوم بالذات أن أوكل رئيس الدير إلى ثيؤدوره أن يأخذ جمال الدير إلى الاسكندرية لكى يحضر مؤونة الزيت وكان عليه أن يمر ناحية الكنيسة المذكورة . حدثت المقابلة غير المتوقعة وعرف قائد الجمال الشخص الذى كان سائراً قرب الكنيسة لكن الزوج لم يكن يظن البتة أن هذه هى زوجته وكانت لابسة زى الرجال فلم يعـــرفها اطلاقاً ـ لم يطرأ على قلبه أن تكون هى ثيؤدوره فقد تغيرت هيئتها تماماً بسبب كثرة الأصوام والنسك والتقشفات التى أحنت ظهرها . . . مرت بجانبه وحيته تحية السلام وانطلقت فى طريقها ، أما هو فعاد أدراجه مسلماً الأمر لله الذى بيده كل شىء .

وحوالى سنة ٥١٠ م حرر الموت ـ وهو منفذ إرادة الله الصالحة ـ نفس ثيؤدوره من سجن هذا العالم المملوء بالتجارب والخطايا ، وأظهرت واجبات التكفين سر ثيؤدوره وكيف أنها كانت إمرأة . بكى الآب رئيس الدير كذا الرهبان عليها . علم الزوج أيضاً بأمرها وتحقق له أنها زوجته وأنها هى ذاتها التى كانت قد قابلته وهى تقود الجمال بالقرب من كنيسة القديس الأنبا بطرس وكيف أنه لم يستطع أن يتعرف عليها على الاطلاق فى ذلك الوقت .

وشاءت إرادة الرب أن يحضر بسرعة إلى الدير وأن يشترك فى جنازتها ـ وأن يراها ميتة بالجسد بعد أن أرضت الرب بتوبتها الصادقة .

وتمضى المخطوطة تقول أنه بعدئذ التمس من رئيس الدير أن يقبله فى ديره ليترهب ، وهكذا أمضى بقية حياته .

وتثبت العجائب العديدة التى أجراها الله بصلوات القديسة ثيؤدوره أى درجة عالية من الكرامة يعود إليها الخاطىء التائب

الصادق فى توبته ، والمغفرة الجزيلة التى يحظى بها كل من يرجع عن شروره التى اعترف بها وتاب عنها .

* * * * *

نرى من التاريخ أن مثل هذه القصص كان لها أثر واضح بالنسبة للأزواج فلقد كان القديس بولا البسيط تليذ القديس انطونيوس الكبير متزوجاً وخانته زوجته ـ ترك العالم وانطلق إلى الدير وقد منحه الرب مواهب عديدة منها اخراج الشياطين.

وهنا قد يثار سؤال :

غالبا تتعذر الرهبنة لسبب أو لآخر كسبيل بعض التائبين والتائبات إلى ذلك فماذا يفعل الذين فى العالم بعد سقوطهم فى الخطايا ، يجيب القديس يوحنا الذهبى الفم فى ميمر قاله على الذين يتخلفون فى وقت القداسات وعن المائدة الطاهرة (وبقرأ نصف الليل من ليلة الخميس الكبير) هكذا قائلا : ... لعل سامع يقول وكيف أستطيع أن أكون فى العالم فى وسط أمروره وانخلص من شروره فأجيبه أنه **ليس المكان هو الذى يخلص بل جودة الطريقة وتقويم النية هما سبب خلاصنا** قد كان آدم فى الفردوس كأنه فى الميناء لكنه غرق ، وكان لوط فى مدينة سدوم كأنه فى

اللجة وخلص ناجياً .. وقد أوصى بالسهر فى الصلوات وحضور القداسات الإلهية حضوراً متصلا...(عن المخطوطة ٢٩٦/١٧٥ طقس بالمتحف القبطى)

حقاً ما قاله القديس مار اسحق السريانى « أن الله يهمه العمل ولو كان بلا شكل ولا رسم » ، وفى القصة التالية التى وردت فى تاريخ القديس مكاريوس الكبير خير تفسير .

قيل انه فيما كان القديس مكاريوس الكبير يصلى واقاه فكر العظمة والافتخار ... فسمع للحال من يقول له انك لم تبلغ إلى الآن فضيلة امرأة أرملة تسكن مع امرأة ابنها بمحبة كاملة فى مدينة الاسكندرية ويمكنك أن تشاهد فضيلتها عياناً ، فلما سمع الأب هذا الاعلان انقد بنشاط الرغبة لمشاهدة هذا الأمر وقام لوقته إلى الاسكندرية بعد أن زود رهبانه بالنصائح وبتدبير من الله استدل على منزلهما وقرع الباب ففتحت له احداهما فاستدعاهما وخاطبهما قائلا : « انى من أجلكما قد عانيت مشقة السفر ومتاعب البرية وما ذلك إلا شوقا لاعلم ماذا تصنعان وما هى حالة معيشتكما ، فقالتا له هل يمكنك أن تجد صلاحاتى إمرأتين متزوجتين يعيشان فى لذة ونعيم ؟ ، فألح عليهما فقالتا له : اننا اقترنا بسر الزواج مع أخوين من مدة ١٥ سنة وقد مضت هذه

المدة بدون أن تخرج من فم الواحدة كلمة تغيظ الأخرى ولم يحدث بيننا خصام أو شبه خصام قط ، وأن الواحدة منا لا تميز أولادها عن أولاد الأخرى بل تهتم بما يرضى أولاد الأخرى قبل أولادها ، ثم قالتا له : « قد تعاهدنا أمام مخلصنا أن نعيش هكذا كل أيام حياتنا ونطلب منه تعالى أن يساعدنا على القيام بعهدنا ، فلما سمع القديس خبرهما هتف قائلا : حقاً ان الله يمنح المتزوجين كما يمنح المتبتلين وأنه تعالى لا ينظر إلا للضمائر والقلوب ويمنح روحه القدوس لجميع الذين يخدمونه .

† † †

عذراء قيصرية فلسطين

تائبة من قيصرية فلسطين

نأتى هنا بذكر ما ورد فى القصص القديمة عن خاطئة كانت بقيصرية فلسطين وتابت ، وذكرت هذه القصة فى كثير من المراجع منها .

1) Stories of the Holy Fathers XXIX الفصل
2) The Paradise of the Holy Fathers P. 11 Page 138 - 140.

وقد وجدنا قصة أخرى مماثلة فى هذين المرجعين واكتفينا بهذه القصة وأتينا بها لأنها تبين ما تجره الخطية من الويلات والضيق والاضطراب والسقوط إلى أحط الدرك .

هى ابنة لأحد كبار رجال قيصرية فلسطين ، ابتعدت عن الله وسلكت طريق الغواية والشر وتدرجت فى الخطية والفساد حتى سقطت فى الهاوية .

استمرأت حياة اللهو والدنس وظلت زماناً على هذه الحالة التعيسة تحيا حياة الإثم فى غير ما وازع حتى أتت ساعة إعلان خزيها وعارها وافتضاح دلالتها عندما بدأت تظهر عليها أعراض الحمل ولم تقدر أن تخفى جريمتها واضطربت اضطراباً كبيراً وأشعر بدنيا

واضطرب شريكها الشرير مرتكب الإثم لأن أمرها أصبح واضحاً وانكشفت الجريمة التى كانت فى الخفاء فلقنها هذا الشخص الذى سقطت معه فى الخطية أن تلقى التهمة على قارىء بالكنيسة ولا عجب إذا كان قد استباح لنفسه ارتكاب الإثم أن يختلق الافك والاكاذيب ، فليس له وازع يردعه عن الاسترسال فى شروره .

ولما انكشفت فضيحتها لدى أهلها ، أخذ أبوها يسألها فى مرارة الحزن أن تقر بجريمتها التى لا سبيل الى اخفائها وانكارها وهنا كاشفت والدها بأن قارىء الكنيسة هو الذى اعتدى عليها .

وأشتهر عن القارىء أنه هو المعتدى الأثيم وكان الناس يتقولون عليه، هذا هو الذى يعظ فى الكنيسة ويملأ اسماع الناس بأقوال الكتاب المقدس ، هذا هو خادم كنيسة الله . . . ! ! ، وكان لابد أن يخطر الأسقف ليتخذ من الإجراءات ما يراه ضده حتى يرتدع أمثاله . وأجرى الأسقف تحقيقاً معه وطلب اليه أن يقر بالحقيقة ، لكن القارىء - وكان بريئاً - لم يشأ أن يعترف بأنه قد اقترف هذا الشر العظيم ولم يستسغ أن يتهم نفسه بجرم شنيع لم يفعله . فاغتاظ الأب الأسقف من سكوته وعدم اعترافه ووبخه قائلا : ألا تريد أيها البائس الذى ارتكب كل هذا الشر

أن تقر بخطاياك ؟ » . أجابه القارىء : « انى أقر يا سيدى أنه لا علم لى بهـــذا الأمر ولم يطرأ أى فكر من جهة هذه الفتاة ولم ارتكب شراً قط ، لكن إذا كنت تطلب منى الاعتراف بأمر لم ارتكبه فإنى أقول انى مرتكب هذا الجرم » . وللحال حكم الاسقف بقطع القارىء من درجته وبإقصائه عن خدمة الكنيسة ...

أما القارىء فإنه بعـــد ما صدر هذا القرار طلب تسليمه الفتاة فأجابه إلى طلبه وترجح لديه أن القارىء مذنب وأن قلبه لم يزل متعلقاً بها ولولا ذلك لما طلب تسليمها إليه .

كان هذا القارىء يخاف الله ويتقيه ورأى تخليص نفس هذه المسكينة بعد أن سقطت... فأودعها أحد بيوت العذارى وطلب إلى رئيسته العناية بأمر حياتها الروحية . استمرت مدة وجيزة وبعدها كان لابد لها أن تجنى ثمار الإثم عاراً وهوانا فى هذا المكان.

تعذبت الفتاة كثيراً وتعذر عليها أن تلد الطفل وكانت تعانى آلاماً مبرحة وتصرخ من شدة العذاب الذى أصابها ، وما زالت على هذه الحالة والألم يزداد يوما بعد آخر إلى كمال سبعة أيام ، لم تستطع أن تنام طوال هذه المدة حتى أشرفت على الموت وكانت

تصرخ وتقول : « ويل ويل لى ان موتى أصبح وشيكاً وقد اتهمت زوراً قارىء الكنيسة » .

سمعت رئيسة بيت العذارى ذلك وأبلغت الأمر على الفور إلى الأب الكاهن المشرف الروحى ، فلم يشأ أن يتسرع بإبلاغ الاسقف بل انتـــظر يومين آخرين ظناً منه أنه ربما تفيق من آلامها فتستطيع أن تتكلم بأكثر تفصيل وتفصح عن حقيقة الأمر لكن الحالة كانت تزداد سوءاً ولم تطق العذارى إحتمال رؤيتها تعانى هذه الآلام .

لم يكن هناك بد من إبلاغ الأسقف بما حدث وباعتراف الفتاة ببراءة قارىء الكنيسة الذى اتهمته زوراً ... فأرسل الاسقف بعض الشمامسة إلى القارىء برسالة قال فيها :

« صل إلى الله من أجل الفتاة التى اتهمتك زوراً لكى يخلصها الرب من أتعابها » لكن القارىء لم ينطق ببنت شفة . انه بعد التهمة التى لصقت به لم يفتح بابه لأحد بل كان معتكفاً ملازماً الصوم والصلاة حتى كشف الرب الحقيقة وظهرت براءته ولا شك أنه كان فى صلواته يطلب إلى الله أن يخلصها بمراحه .

شاع هذا الأمر فى المدينة وعرفت براءة القارىء فانطلق والدها إلى الاسقف وطلب إليه أن يقيم الصلاة لأجل نجاة إبنته

اليائسة من الموت ، لكن رغم ذلك لم تنل الراحة من أوجاعها.

حينئذ كلم الأسقف القـــارىء وقال له: يا استاسيوس « Eustathius » قم الآن لإنقاذ الفتاة فإن عذابها لا يطاق . صلى القـارىء مع الأسقف صلاة طويلة وكان فى نهايتها أن خلصت الفتاة وشفيت أوجاعها وولدت طفلها .

وهكذا أعيد القـارىء إلى رتبته وأكرمه الرب بإظهار براءته ، وأن الفتاة المسكينة تابت التوبة الحقيقية وكانت تمارس كل قوانين التوبة من أسهار فى الصـــلوات وأصوام متواصلة وظلت عابدة الرب بقية أيام حياتها حتى تنيحت بسلام .

† † †

القديسة تاييس التائبة

القديسة تايس

التائبة بالاسكندرية (١)

ان الحديث عن هذه القديسة التائبة نافع جداً ومشجع للنفوس الساقطة التي جرفها تيار الخطية لأن مثل هذه القصة تثير الأشواق للرجوع إلى حضن الكنيسة - مهما تكن الخطايا ثقيلة - حيث تستقر النفوس وتستريح لأنه لا راحة حقيقية إلا في البعد عن الشر والالتصاق بالله وفعل الخير .

ميلادها ونشأتها

كانت تايس مسيحية لكنها كانت يتيمة الأب ، ربما منذ

---

(١) تكتب Thais, Thaisis أخذت عن مراجع كثيرة منها .

1) The Paradise of the Holy Fathers Vol. Ip. 140 - 142.

2) Stories of the Holy Fathers, Budge . ch. XXX p. 185.

3) Les Saints d'Egypte, Cheneau Ip. 394, 395 II p. 402 , 403.

حداثتها ، ولم تكن أمها تسير باستقامة أمام الله وأهملت تربية ابنتها التربية المسيحية الحقة ، فلم تسهر على رعايتها وتعليمها بل بالعكس كانت تسلك سلوكا مغايراً للآداب المسيحية وكانت ابنتها بطبيعة الحال تتأثر مما تراه من أمور لا تساعد على طهارة النفس ، وهكذا قد جنت الأم على إبنتها .

ان كثيرات من الأمهات بتصرفاتهن وسلوكهن الردىء وملابسهن الغير المحتشمة يقدن بناتهن إلى حياة غير لائقة من حيث لا يعلمن ، يعثرن بناتهن وبدلاً من تدريبهن في طريق النقاء والعفاف يعثرنهن فيسقطن ضحايا استهتار الأمهات ، هؤلاء اللواتي قال عنهم السيد المسيح ، الويل لمن تأتي بواسطته العثرات ، خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويلقى في لجة البحر .

ان أم تايس لما رأت في ابنتها مسحة من جمال وكانت تنظر إلى الناحية المادية ولم يكن لديها الغيرة على الفضيلة والطهارة والحياء ساعدت ابنتها حتى التحقت بعمل في أحد الأسواق

العامة ، وكانت لدى الفتاة مزايا عديدة فقد كانت ذلقة اللسان، لبقة الحديث وجذابة فى المعاشرات فضلاً عن جمالها الساحر لدرجة كبيرة . لكن أبواب حواسها كانت بلا حراسة - فى العمل وخارجه - فاستباحت لنفسها الخطيئة رويداً رويداً حتى سقطت فى خطية الدنس .

† † †

سقوط تايس

سقطت تايس السقطة العظيمـــة واستمرأت حياة اللهو والدنس وكانت تسوق الكثيرين من الأغنياء إلى الهلاك ، هؤلاء الذين بلغوا فى شهواتهم الجنونية حداً كبيراً حتى أنهم كانوا يضعون ثرواتهم تحت أقدامها ، وهكذا ذهبت كل محاسنها أدراج الرياح وفقدت فضيلتها وعفافها وكل شىء ... واشتهرت بالاسكندرية فى الدعارة وعدت من السافطات .

القديس بيساريون الكبير ينقذ تايس

أصبحت موضع حديث الناس وبلغ خبرها إلى القديس

بيساريون الكبير أحد شيوخ برية شيهيت الكبار [1] .

---

(١) ذكر كتاب فردوس الآباء ، وكتاب قصص الآباء القديسين (Budge) التى أشرنا اليهما أن القديس بيساريون الكبير هو الذى ساعد هذه الفتاة على الخلاص . لكن Cheneau فى كتابه « قديسو مصر » الجزء الثانى ص ٤٠٢، ٤٠٣ ذكر ما ملخصه :

أن الأب Paphnuce من Heracléopolis (عند قدماء المصريين كان اسم البلد Hininsouten واليوم مكانها يدعى اهناسيا المدينة) إحدى أجمل المدن وأجلها فى مصر ، هو الذى ساعدها على الخلاص .

وذكر « شينو » أيضاً أنه فى الزمان الذى حدثت فيه توبة تايس كانت جوانب بحر يوسف ومنطقة Heracopolis مملوءة بالأديرة ، بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء يتعبد فيها الكثيرون والكثيرات ليل نهار ، وكان الإيمان يغمر =

وعلم كيف تسقط هذه الفتاة الكثيرين فى الخطية ، وفى كل يوم لها ضحايا كثيرون ، شباب ورجال ينحدرون إلى أعماق الخطية بسببها ، لقد هلكت وأهلكت الكثيرين .

فامتلأ غيرة ليخلص النفوس الثمينة التى اشتراها المسيح بدمه الزكى الكريم وطلب إلى الرب يسوع ببكاء كثير وبإيمان

= قلوب الرهبان والمتوحدين . . . يجاهدون بنشاط نحو خلاص النفوس التى اختطفها إبليس ، وكانوا مقتنعين بأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدون الله وكانوا يتقدمون إليه بدالة وبالثقة الغير المتزعزعة يستجيب لدعائهم، وهكذا فعل Paphnuce (بفنوتيوس) حينما أبحر نحو الاسكندرية لإنقاذ الفتـــاة .

وذكر « شينو » ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ فى كتابه الجزء الأول أن بفنوتيوس كان راهباً ثم صار أسقفاً على Thebaid وتنيح شهيـــداً .

راسخ أن يساعده على انتشال هذه المسكينة من النار . تزيا بزى علمانى وانطلق إلى مسكنها دون أن يدع أحداً يشك فى خطته ، وطلب مقابلتها وما أن دخل غرفتها - وكان ملازما الصلاة ليل نهار من أجلها - حتى بادرها بالقول : « ألا يوجد مكان آخر أكثر انعزالا أستطيع فيه أن أحدثك بحرية » فقالت له « يوجد لكن لا جدوى من الذهاب إليه لأنه إذا كنت تستحى من الناس فإنه فى هذه الغرفة لن يرانا أحـــد ، أما إذا كنت تخشى عين الله فليس عندى غرفة لا يراك فيها » ، فتصنع بيساريون الكبير العجب وسألها : « هل تعرفين أن الله موجـــود وأنه توجد مكافأة للفضيلة وجزاء عن الخطية ، فإذا كنت تعرفين أنه يوجد حكم ودينونة كيف تتسببين فى هلاك هذا العدد الكبير من النفوس لأنك من أجل هذه النفوس الكثيرة سيكون عقابك أكثر من عقابك على جرائمك » .

فهمت تايس مع من تتكلم وفهمت جدية أقـــوال هذا الزائر العجيب وعلمت أنه إنمـــا جاء ليخلص نفسها ، عرفت القصد من الزيارة فجمدت فى مكانها وضمت يديها ونظرت إلى

أسفل فى حياء ولفزعها سقطت على الارض وانفجرت باكية .

«يا أبى ان السماء هى التى ارسلتك ، انى أعلم أنه توجد توبة للذين يخطئون ، أريد أن أترك الحياة النجسة التى سلكت فيها منذ زمن بعيد ، أرجو أن تساعدنى على خلاص نفسى وسأطيع أوامرك بكل دقة ومهما قلت من أمر سأفعله » .

علمت تايس أن هذا الأب لم يكن إلا أحد خدام الله الذين كانت تعرفهم فى طفولتها الاولى ومثل الذين كانت تراهم أحياناً حينما كانت تسير فى الطريق الكانوبى ... أو شارع أرجيوس [1] .

---

(١) ذكر شينو فى كتابه « قديسو مصر » الجزء الثانى ص ٤٠٢ و٤٠٣ أن الشارع Canopique (مأخوذة من كانوب = أبو قير) هو شارع ابو قير الحالى مع امتداده بشارع سيدى المتولى الخط الطوالى القديم . أما شارع Argeus الذى كان الشارع العرضى فربما كان شارع النبى دانيال ، وكانا أهم شارعين فى الاسكندرية القديمة ، وكانت تايس تسير فى هذه الشوارع .

انتقال الفتاة من الظلمة الى النور

بعد هذا الحديث الذى دار بين تايس والقديس بيساريون الكبير طلبت اليه مهلة بضع ساعات وقالت له انى سوف أذهب حيثما تريد وأفعل كل ما تأمرنى به ، فأعلمها القديس عن المكان الذى يمكن أن تقابله فيه ثانية ، وانصرف عنها والفرح المقدس يملأ قلبه ، وفقط الذين أعادوا نفوساً إلى الله من ظلام الخطية أو هاوية الرذيلة هم الذين يستطيعون أن يتذوقوا عذوبة التعزيات الغزيرة التى تفيض على نفوسهم من السماء .

اعلان توبتها

بعد أن انصرف الشيخ عنها تجلدت ومسحت دموعها وأخذت تجمع كل ملابسها الحريرية وامتعتها التى كسبتها عن طريق الخطية وفى وسط المدينة أمام جمهور كبير من الناس أحرقت كل ما كان معها ، وكانوا يظنون أنه قد أصابتها نوبة من الجنون - وقالت فى جرأة عجيبة :

« تعالوا ياجميع رفاق السوء وانظروا انى احرق أمام اعينكم كل هداياكم وتذكاراتكم وكل ما جمعته فى حياتى الشريرة ... » -

انطلاق تايس الى القديس بيساريون الكبير

ان تايس بعد أن احرقت هذه الاشياء وقطعت صلتها بماضيها الاثيم وكل اثر من آثاره ، وبعد ان اعلنت توبتها وانها سوف لاتعود إلى ذلحياة الدعارة الاولى ارتدت بدل الملابس الفاخرة ثياباً من خيش بالية وانطلقت إلى القديس بيساريون الكبير (١) ليعلمها طريق التوبة حتى لا تعود إلى الشر مرة أخرى . اما هو فأخذها الى أحد بيوت العذارى وطلب أن تعد لها قلاية صغيرة خاصة تتعبد فيها ليل نهار ، واغلق بابها تاركاً لها نافذة صغيرة، ومنها يقدم الراهبات لها طعامها وشرابها كما أوصى رئيسة بيت العذارى بشأنها وطلب أن يكتفى باعطائها رطل خبز جاف كل يوم وتعطى من الماء كل ما تحتاجه .

حينئذ قالت له تايس بماذا تأمرنى ان اصلى الى الله حتى

---

(١) كما سبق قلنا أن «شينو» ذكر هذه القصة لكن لم يذكر اسم بيساريون الكبير اطلاقا بل ذكر اسم Paphnuce ، وهنا ذكر «شينو» ايضا ان الأب بفنوتيوس ركب مع الخاطئة مركبة ونزل فى Antinoé حيث اراها قلاية منعزلة جعلها لسكناها واغلق بابها بالرصاص .

يغفر لى آثامى ؟ ، أجابها القديس : « انك لست مستحقة ان تلفظى بشفتيك اسم الله أو ان ترفعى يديك نحو السماء لان شفتيك غير طاهرتين ويديك ملطخة بالنجاسة . ارفعى بصرك إلى السماء واصرخى دائماً بغير فتور « يا من خلقتنى ارحمنى » .

قضت تايس فى قلايتها نحو ثلاث سنوات تمارس التقشف الشديد منفذة كل وصايا القديس .

مقابلة القديس بيساريون الكبير للقديس انطونيوس

بعد هذه المدة انطلق القديس بيساريون الكبير إلى القديس أنطونيوس لانه كان يشعر بعظم مسؤوليته امام الله إزاء هذه النفس ـ لغرض التحدث معه فى امر توبة « تايس » وليعرف منه هل سر الله بتوبة هذه المسكينة وغفرت لها خطاياها .

جمع أب الرهبان تلاميذه وأمرهم أن يدخلوا مخادعهم ويصلوا بلا انقطاع الى الله ليكشف أمر توبة تايس ، فعكفوا على الصلاة أياما ، وبينماكان القديس بولس البسيط أقدم تلاميذ القديس انطونيوس يتطلع نحو السماء رأى كرسياً فخماً لم يجلس عليه أحد بين كراسى القديسين ورأى ثلاثة ملائكة

يحملون ثلاثة مصابيح يقفون أمام هذا العرش ، ورأى إكليلا بهياً نازلا عليه من فوق .

أما القديس بولس البسيط فالما رأى هذا المنظر قال: « ان هذا العرش لابد أن يكون لمعلمى انطونيوس» لكن أتاه صوت من السماء قائلا : « هذا العرش لتايس » .

نهض القديس بولس فى الصباح الباكر وانطلق إلى القديس انطونيوس وأعلمه بالقصة التى علم بأمرها القديس بيساريون الكبير أيضاً [1] . واستأذن القديس بيساريون من القديس

---

(١) ذكر « شينو » فى كتابه « قديسو مصر » الجزء الأول ص ٣٩٤و٣٩٥ ما ترجمته :

« مرت ثلاث سنوات منذ بدأت تايس الحياة الصارمة الناسكة ، وبالرغم من توبتها القوية كانت روحها مليئة بالقلق واعترفت بكل عذابات ضميرها إلى الأب بفنوتيوس ، الذى ذهب ليستشير القديس انطونيوس ، فجمع أب الرهبان الإخوة الموجودين وجعلهم يصلون إلى الله ليرشدهم . . . وكان كل =

انطونيوس فى الانصراف ومضى إلى بيت العذارى ليخرج تايس من قلايتها التى كانت حبيسة فيها لكنها ترجته فى حزن وانسحاق أن يدعها فيها إلى يوم مماتها . حينذاك قال لها الأب « الرب صنع معك رحمة وقبل توبتك » قالت له القديسة : « انه من يوم أن دخلت إلى هذه القلاية وخطاياى امامى فى كل حين كحمل ثقيل ، أصلى بانسحاق قلب وبيكاء أن يصنع الرب معى رحمة كعظيم رحمته . . . » اجابها الشيخ . « ولهذا غفر لك الرب خطاياك من أجل صدق توبتك ولأنك سلمت نفسك كلية للسيد المسيح .

= واحد يصلى صلاة حارة منفردة وفجأة رأى بولس وهو أقدم التلاميذ كرسياً فى السماء (بين كراسى القديسين) مزداناً بزينة ثمينة يتحفظ عليه ثلاث عذارى متألقات بالنور فصرخ فى تعجب أن هذا العرش العجيب محجوز بلا شك لأبينا انطونيوس ، فاذاه صوت من السماء : كلا كلا هذا العرش الشريف موهوب لتايس الخاطئة .

وان القديسة خرجت بعد ذلك من قلايتها ولم تعش مدة طويلة حيث قضت على الأكثر خمسة عشر يوما ، وكانت صحتها تضعف يوما فيوم مثل النبات الذى اجتثت جـــذوره فجأة ، يبتدىء يذبل ثم يجف ، ورقدت فى سلام الرب تاركة للأجيال مثلا رائعاً للتوبة ولظهور رحمة الله .

† † †

واشتهر اسم تايس عندما اكتشف احـــد الاجساد فى Antinoé ورجح أن يكون هو جسدها ، وشغل هذا الأمر اهتمام كبار علماء الآثار لكنه ظهر أن نسبة هذا الجسد للقديسة مشكوك فيه ،والاسم الذى كان مكتوباً على الجسد المكتشف هو « Thaia »[1].

---

(١) انظر فى هذا الموضوع مجلة متحف Guimet الكتاب الثلاثين الجـــزء الثالث . وراجع « شينو » الجزء الثانى ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، Antinoé هى قرية الشيخ عباده .

وعليه فلا يمكن الجزم برأى .

وينبغى ملاحظة أن القديس بيساريون الكبير Bessarion هو خلاف القديس « سيرابيون الكبير » Serapion الذى له قصة مماثلة ، ذكرت فى كتاب « The Book of Paradise » ص ٤١٣ كما ذكرت فى كتاب البستان الجزء الأول طبعة سنة ١٩٥١ ص ٩٤ وملخصها أنه سعى مرة لاختطاف خاطئة من النار ، توجه إليها وكان يتلو مزاميره وفى نهاية كل مزمور كان يقول يا رب ارحم هذه المسكينة وردها للتوبة لتخلص فسمع الرب صلاته وإذ كانت قائمة بجانبه ارتعدت فرقاً وخرت على قدميه طالبة إليه أن يخلصها فأقامها ووعظها وأرشدها إلى طريق الخلاص وأرسلها أخيراً إلى دير للعذارى وسلمها للرئيسة حيث قضت بقية أيام حياتها فى بر وطهارة إلى أن تنيحت بسلام .

والخلاف بين القصتين ينحصر بالنسبة للأول فيما يختص برؤيا العرش الذى لم يجلس عليه أحد والذى كان فى وسط كراسى القديسين والذى رآه القديس أنبا بولس البسيط .

† † †

التعريف بالقديس بيساريون الكبير (١)

ولد من أبوين مسيحيين قبل منتصف القرن الرابع الميلادى فى إحدى قرى مصر ، ومنذ حداثته تعمق فى معرفة الله وفى مطالعة الكتب المقدسة . ولما بلغ أشده اشتاق إلى الحياة الرهبانية الفضلى فقصد الآب العظيم القديس أنطونيوس وتتلمذ له زماناً ثم انطلق إلى القديس المغبوط مكاريوس الكبير ومكث أيضاً تحت إرشاده عدة سنين .

تقدم القديس فى الروحيات وكان كل يوم يزداد فى الفضيلة وفى التقرب إلى الله حتى أصبح من النساك الكبار . توغل فى البرية تائهاً ، متجرداً من كل قنية تجريداً تاماً حتى انه لم يكن له سوى ثوب واحد وعباءة والكتاب المقدس ، وكان يطوف على ديارات الرهبان وأماكن نسكهم زائراً لهم ، ولاقى فى ذلك صعوبات جمة . وقيل عنه أن الدموع ماكانت تفارقه ولما كانوا

(١) من السنكسار طبعة ١٩١٢ ص ٣١٣ الجزء الثانى ، وكتاب د. أوليرى « قديسو مصر » ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، وكتاب فردوس الآباء القديسين لبدج Budge الجزء الأول من ص ٢٤٢ وقد اقتطفنا القليل من سيرته الطويلة المعطرة لضيق المقام .

يسألونه لماذا تبكى يا أبانا كان يجيب ، قد سلب منى غناى وهربت من الموت وسقطت من شرف الحسب . . . يقصد الخسارة العظيمة التى لحقت بالجنس البشرى بسبب سقطة آدم الأول .

شرف الله القديس بآيات كثيرة منها أنه فيما كان سائراً برفقة تلميذه القديس دولاس على شاطىء البحر عطش التلميذ عطشاً شديداً ولم يجد ماء ليشرب ، فأخذ هذا القديس من الماء الملح فى وعاء ورسم عليه بإشارة الصليب المجيد وأعطى تلميذه فشرب منه ، فكان عذباً زلالاً لا أثر للملوحة فيه (١) .

ومنها أن قوماً أتوا مرة بمجنون إلى شيوخ برية القديس مكاريوس الكبير ليصلوا عليه فيبرأ ، ولعلم الشيوخ أن القديس

(١) ذكر كتاب René Bassé هذه الأعجوبة وأضاف تلميذاً آخر مع القديس دولاس هو القديس يوحنا ـ وتوجد قصص أخرى فى تاريخ الكنيسة عن معجزات تحويل الماء المالح عذباً منها أن القديس البطريرك الأنبا ساويرس الانطاكى زار مرة دير القديس مكاريوس الكبير بمرية شيهيت وشكا له أحد الشيوخ من ملوحة ماء البئر التى يشرب منها الرهبان ، فصلى إلى الرب يسوع وطلب إلى الآب أن يلقى بالماء المتبقى من غسل الأوانى المقدسة بعد نهاية القداس ويشرب فعمل وإذا بماء البئر يصبح عذباً .

لا يحب المجد من الناس لم يشاءوا أن يسألوه من أجل المجنون بل وضعوه داخل الكنيسة فى المكان الذى كان يقف فيه وقت الصلاة فلما دخل وجد للصاب نائماً فأيقظه بيده فقام معافى صحيح العقل والجسم وغير هذه آيات كثيرة .

ومكث فى جهاده ٥٧ سنة وبلغ إلى شيخوخة كبيرة وتنيح بسلام ، وتعيد له الكنيسة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مسرى .

بركة صلاته تكون معنا آمين ؟

† † †

درس عنيف يلقنه

كبار آباء البرية لكل الأجيال

بعد الفراغ من هذه القصة لصمت فى دهش من تصرف الآباء الكبار حيال خاطئة والاهتمام كل الاهتمام بأمرها حتى اطمأنوا إلى توبتها الصادقة وخلصوها من النار .

الآب بيساربون الكبير يتعهد نفس تايس ، يسافر إلى مدينة الاسكندرية ليعظ الخاطئة ، يتكبد ثانية مشقات كثيرة فى السفر للقديس أنطونيوس بشأنها ، يصلى الآباء الكبار مع الصغار من أجلها وأخيراً يتصرف القديس بيساربون الكبير بعد أن استطاع بنعمة المسيح أن يخلص نفساً من الموت .

من أجل فتاة ساقطة بالاسكندرية تكتلت جهود كثيرة لإنقاذها ، وما أحوجنا إلى من يلهب قلوبنا بالعظات النارية ويختطف النفوس من فم الأسد .

ان كثيرين من الآباء الكبار فعلوا مثل ذلك - فى القصة التالية قصة « بائيسة » ترى كيف أن شيوخ برية شيهيت لما علموا بأمر سقوطها فى الخطية حزنوا حزناً عظيماً وصلوا من أعماق قلوبهم ليرحم المسكينة .

جيل أن يحس سكان البرية بسقطات النفوس وجبل أن يصلى الشيوخ من أجل بائيسة وكان يمكن أن ينتهى الأمر إلى هذا الحد ويكون صنيعاً محموداً فاكان لسكان البرية - حسبما يرى الكثيرون أن يفعلوا أكثر من ذلك. لكن تلك القلوب العامرة بمحبة السيد المسيح تخطت ماهو فوق ذلك وداست كل الحواجز والعوائق، حطمت كل الصخور والعثرات التى فى الطريق فى قوة وجرأة وشجاعة، واتخذ الرهبان موقفاً إيجابياً حتى أخرجوا الفريسة من فم الأسد.

لقد اجتمع الشيوخ بسبب بائيسة وقرروا انتداب أقدم الشيوخ وأكثرهم إفرازاً وحكمة وهو القديس يحنس القصير لكى يبحث عن بائيسة ويساعدها على خلاص نفسها، ومن ناحيتهم كانوا يجاهدون معه فى الصلوات مدة غيابه حتى يرد الخاطئة عن طريق ضلالها.

وهكذا انطلق القديس يحنس القصير سعياً وراء إنقاذ بائيسة.

† † †

القديسة بائيسة التائبة

القديسة بائيسة التائبة

ولدت القديسة بائيسة فى منوف من عائلة مشهورة بالتقوى والثراء - فى القرن الرابع - رباها والداها فى خوف الله وكانت منذ صغرها محبة للفقراء والمساكين متعبدة ليل نهار تواظب على الصلاة والصوم . . . انتقل والداها إلى الرب وتركا لها ثروة كبيرة فجعلت فى قلبها أن تضع كنزها فى السماء حيث لا يفسده سوس ولا يسرقه سارقون . فكانت توزع صدقات كثيرة على الفقراء والمحتاجين وكانت تقوم بضيافة الغرباء وخدمتهم .

وذاع صيت فضائلها وبالأخص الصدقات الكثيرة والهبات المتنوعة التى كانت تهبها ، فى كل الأوساط حتى بين سكان برية شيهيت لأن حياتها كانت كالمصباح الموضوع على المنارة والذى يضىء لكل الناس .

استمرت على ذلك زماناً حتى صرفت كل مقتنياتها . . . ويبدو انها كانت ترغب فى أن تتجه بعد ذلك إلى أحد ديارات أو بيوت العذارى وكانت كثيرة فى ذلك الزمان ، كقول السيد المسيح للشاب الغنى (الذى تقدم اليه قائلا : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل

لتكون لى الحياة الأبدية) « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى »[1] . بينما كانت مبتهجة بالسلام الذى يفوق كل عقل ، وبينما كان الهدوء والسكينة يخيمان على حياتها إذا بالشيطان عدو كل بر يرى محصول القمح الوافر خالصاً من كل شائبة ، فأراد أن يلقى فى وسطه الزوان ليفسده ، ونصب الفخاخ لإسقاطها ، واستطاع بعض الغرباء عن المسيح - ذئاب خاطفة فى ثياب حملان - ودخلاء ممتلئين من غش إبليس ومكره أن يستميلوا قلبها إلى الشر فزينوا لها طريق الغواية تحت ستار الترويح عن النفس وصرف السآمة والملل ، ونتيجة للتراخى والتهاون تكاسلت فى الصلوات وتلاوة التسابيح وانقطعت عن الصوم والسهر فى العبادة ، فأخذت الأفكار الشريرة تحاربها وفقدت السيطرة على ضبط النفس وكانت تتجاوب مع الأفكار الدنسة حتى سقطت فى الهاوية .

إنطفأ فجأة السراج الوهاج ، خبا نور فضائلها وصارت تتخبط فى الظلام ، وعلى قدر ما كانت متقدمة فى الفضائل أمعنت فى ارتكاب القبائح ، وأصبح قلبها الطاهر مسكناً للتنانين .

---

(١) مت ١٩ : ٢١ .

وصل هذا النبـــأ المؤلم إلى شيوخ برية شيهيت القديسين فحزنوا حزناً عظيماً وأقاموا الصلوات من أجلها وانتدبوا أقدم الرهبان القمص يحنس القصير لمقابلتها ومساعدتها على خلاص نفسها وانقاذها .

أطاع القديس - وهو المثل الأعلى فى الطاعة كما سيأتى فى سيرته - وانطلق حيث تقيم .

ومنذ أن علم القديس بخبر سقوطها لم يهدأ له بال وكان يصلى طالباً إلى السيد المسيح أن يمده بمعونة من عنده حتى تخلص هذه النفس ، ولما سار إليها كان يتلو صلوات المزامير ويستغيث بمراحم الرب .

وما زال فى طريقه حتى وصل إلى سكنها وطرق على الباب وقال للبوابة اعلمى سيدتك بقدومى ثم دخل إليها وهو يرتل قائلا : إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لانك أنت معى .

نظر إليها وقال : «لماذا استهنت بالسيد المسيح بهذا المقدار وأتيت هذا الأمر الردى» ؟ فارتعدت وذاب قلبها من تأثير كلام القديس ، أما هو فأحنى رأسه إلى الأرض وبكى بكاء مراً ، فقالت له « ما الذى أبكاك ؟ » أجابها قائلا : « لأنى أعاين الشياطين تلهو على وجهك فلهذا أنا أبكى عليك » قالت له :

« هل لى توبة » أجابها : « نعم ، ولكن ليس فى هذا المكان » فقالت له : « خذنى إلى حيث تشاء » ، فانصرف من عندها ولحقت به مسرعة حيث دخل الاثنان البرية ، ولما أمسى الوقت قال لها : « أرقدى هنا ورقد هو بعيداً وقام ليصلى صلاة نصف الليل فشاهد عموداً من نور نازلا من السماء متصلا بالأرض وملائكة الله حاملين نفسها ، فاقترب منها فوجدها قد ماتت . فألقى ذاته على الأرض وصلى إلى الله صلاة طويلة بسببها فسمع صوتاً قائلا : ان توبتها قد قبلت فى الساعة التى تابت فيها أكثر من الذين تابوا سنين كثيرة ولم يظهروا حرارة فى توبتهم مثل هذه القديسة .

وبعد ما دفنت مضى وأعلم الشيوخ بما جرى فمجدوا الله وعظموا اسمه القدوس ، وتعيد لها الكنيسة فى يوم ٢ مسرى .

والآن ونحن نشير إلى القديس العظيم يحنس القصير من كبار آباء برية شيهيت نورد قليلا عن تاريخه .

† † †

القديس يحنس القصير

ولد حوالى سنة ٣٣٩م ولما بلغ من العمر ثمانى عشرة سنة مضى إلى برية شيهيت وتتلذ لأنبا بموا (تلميذ القديس مكاريوس الكبير) وخدمه لمدة ١٢ سنة فى مرضه وقبل وفاته أخبر القديس يحنس أن يجعل مسكنه قريباً من الشجرة التى زرعها - وهى العصا التى كان يسقيها لمدة ثلاث سنوات طاعة لأمر معلمه حتى أورقت وسميت شجرة الطاعة - وبعد نياحة الأنبا بموا إنتقل القديس يوحنا إلى قرب الشجرة المذكورة وعمل لنفسه مغارة وحفر بجوارها بئراً وتتلذ له كثيرون فى هذا المكان ورسمه البابا تيموثاوس البطريرك ١٤ (٣٨٠ - ٣٨٥م) كاهناً .

وقد بنى القديس يوحنا ديراً باسمه وهو يبعد حوالى ١٠ كم تقريباً من دير القديس مكاريوس الكبير وظل قائماً حتى القرن الرابع عشر ثم خرب - ولما هجم البربر على شيهيت هرب القديس يحنس إلى صحراء القلزم فى الصحراء الشرقية بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وتنيح حوالى ٤٠٩م ، وتعيد له الكنيسة فى ٢٠ بابه.

بركة صلاته تكون معنا آمين ؟

† † †

تحويل النفوس الخاطئة

رأينا فى قصة القديسة بائيسة أن القديس يحنس القصير لما التقى بها وفاجأها بالتوبيخ المرير لأول وهلة ، على غير ما كانت تتوقع انها للحال إنهارت وسقطت تحت أقدامه طالبة مساعدتها على التوبة ، أفاقت من حديثه معها وتنبهت إلى ورطتها وشعرت بالألم الدفين الذى يملأ قلب كل خاطىء - وان كان يرى حسب الظاهر مرحاً منشرحاً - وكان مثل القديس يحنس مثل الطبيب الماهر الذى يفاجىء المريض بمبضعه فيضعه فى مكان الألم ينظفه ثم يضع المراهم ويحكم الأربطة حول الجرح حتى يتم شفاء المصاب.

وفى القصة الأخيرة التى نعرضها فى هذا الكتاب نجد أن القديسة مرثا المصرية لما منعت من دخول الكنيسة ليلة عيد الميلاد ، ولما رأت تجمع الناس حولها ، قلوبهم فرحة متهللة والكنيسة مزدانة متألقة بالأنوار ، وهى تقف خارج الباب يمنعها الايبوذياكن عن الدخول ثم يحضر الأسقف بذاته ويفاجئها بقوله : « **أما تعلمين ان بيت الله مقدس ولا يدخله غير طاهر ؟** » ان مشاعرها إهتزت هزاً عنيفاً لهذا الفرز من الجماعة والحال نخس قلبها وأعلنت توبتها جهاراً وصارت **القديسة مرثا المصرية** تعيد لها الكنيسة وتذكر اسمها فى السنكسار .

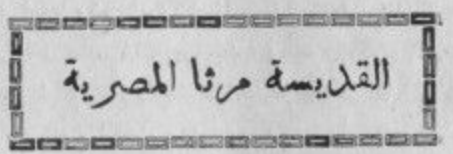

القديسة مرثا المصرية (١)

ولدت فى مصر من أبوين مسيحيين غنيين وسارت سيرة منحرفة مذمومة حتى أنها كانت تخالف جهاراً الوصية السادسة ، وحدث أنها أرادت أن تذهب للكنيسة ليلة عيد الميلاد ، ولما توجهت للكنيسة وهمت بالدخول منعها ايبوذياكن الكنيسة وحصلت بينهما ضجة سمعها الاسقف فأتى إلى الباب ليعلم السبب فلما رآها قال لها : « أما تعلمين **ان بيت الرب مقدس ولا يدخله غير طاهر** ؟ فصدمت بهذا الكلام صدمة عنيفة وتأثرت لساعتها بالغ التأثر وبكت بشدة وقالت : « اقبلنى أيها الآب فإنى تائبة من هذه اللحظة ومصممة على عدم العودة إلى الخطأ ، فقال لها: إن كان الأمر حقاً كما تقولين فاحضرى ملابسك الحريرية وزينتك الذهبية ، فمضت بسرعة وحملت كل ماكان لها وأتت به إلى الآب الاسقف فباعه ووزع ثمنه على الفقراء والمعوزين ، ثم

---

(١) عن السنكسار الجزء الثانى ص ١٦٢، ١٦٨ تحت يوم ٣ بؤونة ومن كتاب « د. أوليرى » (قديسو مصر) ص ١٨٩ ونكتفى بذكر السيرة مختصرة لضيق المقام .

ألبسها الشكل الرهباني وأرسلها إلى دير الراهبات فجاهدت جهاداً عظيماً وقامت بعبادات كثيرة، وكانت تقول في صلاتها : «يارب ان كنت لم احتمل الفضيحة من خادم بيتك فلا تفضحني أمام قديسيك وملائكتك .

وبعد أن استمرت قائمة في جهادها العظيم مدة خمس وعشرين سنة متوالية تنيحت بسلام ، وتعيد لها الكنيسة في ٣ بؤونه .

بركة صلاتها تكون معنا آمين ؟